الطائر والنخلة.. جانب من تجربة حسب الشيخ جعفر الابداعية

اغربة واتربة.. صحائف الشيخ الساهي بن يقظان

ريسان الخزعلي

مر احدهم براهب في عزلته، فقال: يا راهب! لقد تعجلت وحشة الوحدة..، فقال الراهب، يا فتى! لو ذقت حلاوة الوحدة لاسترحت اليها من نفسك... (مقدمة قصائد اغربة وأتربة)...، الوحشة والوحدة اذن، هي الثيمة التي تتنفس فيها ومنها قصائد / اغربة واتربة / للشاعر الكبير / حسب الشيخ جعفر/.. وهي قصائد لاحقة لاعماله الشعرية.. وتجيء على هامش مجموعته الشعرية / كران البور /.. التي قال عنها ذات مرة وهو في معرض اجابته عن غرابة اللغة، والبناء الصارم فيها.. من انه اراد ان يتنفس في جوٍ خانق.

وقصائد (أغربة وأتربة).. قصائد تضاء وتوجه من (الخارج).. من انها (من صحائف الشيخ الساهي بن يقظان).. والقناع هنا متطابق في دلالته الاجتماعية مع تركيبة اسم الشاعر، فالساهي لا يتعدى كونه الشاعر حسباً، الساهي عن كل شيء سوى المجد الشعري، ويقظان هو الأب (أب الشاعر) فعلاً، بما عرف عنه من يقظة مبكرة في ريف مدينته الجنوبية (الميمونة - السلام - قرية (ابو انعيجة) - محافظة ميسان). قصائد (اغربة واترية) تجيء بلغة غير تلك اللغة القاموسية في (كران البور).. لغة واضحة حتى وان كانت من خارج القاموس الشعري المألوف للشاعر، والتعليل هنا ربما ينطوي على الاستنتاج من ان الشاعر استدرك ثقل لغته وغرابتها في (كران البور).. وحاول ان يتنفس لاحقاً في جو ليس بالضرورة ان يكون خانقاً. اما البناء الشعري.. فانه هو الآخر اقل صرامة من بناء قصائد كران البور، رغم التزام الشاعر بالتقفية الخارجية والداخلية في معظم القصائد.. ولكن بشكل يبدو اكثر انفتاحاً وانسياباً، وهنا لا اريد ان (اتصور) ان الاستدراك، استدراك الشاعر يجيء بمعزل عن ذائقته الفنية المتصاعدة، وبرنامج مشروعه الشعري خاصة والشاعر حسب الشيخ جعفر الذي عرف عنه دائماً اكتشاف المساحات الشعرية غير المأهولة - على علم دقيق بفنه وتحولاته الجمالية.. (ظاهرة التدوير التي التصقت بفنه، الالتماعات الفولكلورية والاسطورية من ريف جنوب العراق، وتطويعها مع ما هو عصري).. في (الرباعية الثالثة مثلاً).. اشارة إلى القارب الذهبي (الذي حدثونا عنه في طفولتنا، وقالوا: انه كامن تحت التل، وفي اعماق الليل يخرج من مكمنه ليطفو، ذهبياً في الليالي المقمرة على ذرى التلال او سفوحها، وفي المقطع الثالث في القصيدة تتلو الصبايا نشيدهن إلى النهر، وهن يشعلن النار ويلقين بها إلى الماء، وفي القرى، ايام الطفولة عادة قديمة تقام طقوسها عند انتهاء الشتاء.. حيث يرحب الناس بمقدم الربيع مضحين له بالنذور التي تكون عادة أكواماً من القش تشعل النار فيها وترمى إلى الماء لتطفو ملتهبة فترة من الزمن. وقد يضربون على جوانب اكواخهم كأنهم يطردون اشباحاً، والجنية ذات الشعر الذهبي تعيش في قصرها في اعماق الهور، حيث يصب النهر الذي تجثم على جانبيه القرى، وهي الحلم الجميل الذي يشد افئدتنا اليه كل ربيع حين يخضر الهور ويزهر، وتنحدر الزوارق بحثاً عن السمك او لتعود ملأى بالبردي او القصب الاخضر، ولكن زورقاً ما قد يتخلف، وينتظر الأهل عودته عبثاً ويقولون لنا انه اسير الجنية الذهبية ونتصوره مكبلاً بجدائل من شعرها الطويلة). وكذلك (الرموز الجديدة) استلهام روح الحكايات والخرافات وشحنها بدلالات عصرية.. تطويع الموسيقى لاعمال شعرية كبيرة، خلط ومزج البيئات المتضادة والمتباعدة في استذكارات شعرية عميقة الفهم والوقع.. الخ، اضافة إلى كونه الشاعر المتفرد بذاكرة تنفلت بعيداً عن سياج الدار، غير منشغل بالهم البيتي في حدوده المألوفة.. إنه خارج هذه الحدود في تأملاته الشعرية.. من هنا يكون الاعتقاد جازماً..ان استدراك الشاعر غير متأتٍ بالكامل من ردود فعل وقع مجموعته (كران البور) في الوسط الثقافي او في عموم المناخ والذوق الشعريين. إن هذا الاستدراك هو جزء آخر من تحولات شعرية فنية وجمالية يسعى اليها الشاعر حثيثاً وبانفراد واضح على طول خط مسيرته الشعرية.

في قصائد (أغربة وأترية).. وهي قصائد تأملات تنبش في موضوع الخواء والوحشة والوحدة كما اوضحت.. تأخذ القصيدة فيها نمطين من التشكيل الشعري: في النمط الاول تجيء القصيدة على شاكلة بالسرد القصصي، وتخلو عادة من الضربة الفنية التي تحكم نهايات القصائد، كما في النمط الثاني، حيث تنتهي القصيدة بانسياب يوحي بانها لم تنته بعد.. ويتمثل هذا النمط في قصائد (زامر الريح، القحط، الجنية، العثرة، الجراد، الطبل الكبير، الضوء القديم، في المرفأ المتجدد، الخان، العكاز، الخواء).. وان هذه القصائد تقترب اكثر من غيرها من روحية قصائد (كران البور) بشكل او بآخر رغم الاختلافات التي اشرت اليها سابقاً.

فيما رأى غيري..
رأيت غمامة موبوءة
هبطت على الارض الرؤوم
وقد اعتصمت..
بصمت من صمتوا ولاذوا..
بالصاغرين الناظرين وراء..
نافذة الأفق العبوس
وصببت
ملء فمي الكؤوس
متلاهياً عما يدور
وقلت عن كثب تفوت.. (قصيدة الجراد).

اما النمط الثاني الذي تمثله قصائد (سور الصين، صبيحة عيد، الطوفان، المرايا) فان القصيدة تأخذ منحى آخر من التشكيل الشعري.. حيث تبدأ عادة بصوت الشاعر العالي، صوت شبيه بالصراخ (أنا)، وهذه (الأنا) هي اللازمة الافتتاحية لكل هذه القصائد.. وفيها يبدو تفاعل الشاعر اكثر حرارة من ذي قبل وربما مرد ذلك، كونه يقترب من موضوعات محلية تحفر بعيداً في مكنونات خزين الشاعر الشعري والحياتي.. وتضعه في مواجهة شعرية اكثر تفاعلاً وتداخلاً مع موضوعه:

أنا جئت فجر العيد
تمثال الفتى الحسن بن هانئ
فأطرت بين يديه
أغربة التهاني
وسألته عما يرى..
في العالم الدامي القبيح
فسمعته ملء المسامع
قائلاً متحسراً:
أنا لا ارى في الارض..
الا ما ترى
فدع الفصاحة وأملأ الكأس الصفيح..
خمراً،
فمذ صب النحاس..
علي والتف الحجر
وتصايحت..
سحراً على كتفي اطيار السما
وأنا..
أمد الكأس فارغة فما
ينصب فيها.. غير أوشال المطر..
(قصيدة صبيحة عيد).

قصائد (أغربة وأترية) تحولات شعرية قصدية في شاكلتين من (السهو واليقظة)، في نمطين من التحولات الجمالية التي تصطف في مرايا الشاعر المتعددة: فمن الاشتباك مع الحياة.. يرمي / طائر النخلة والسيدة السومرية (اسلحته الاولى) (عبر الحائط) شاهداً جديداً يتأمل من وحدته لا في وحدته:

فرأيتني فيما يرى المتسامرون
غرداً..
أجيء إليّ..
من خلل المرايا
إن الخواء والاحساس به في هذه القصائد لم يكن سوى مرثية لزمن إنفلت من بين يدي الشاعر وعلى مرأى منه، وقد وقف متحسراً على طللية زمانية لامكانية فاستعاض بدلالات موحية غير زمنية، جعلها استهلالات للقصائد ليشير عن بعد، لفجيعة حياتية / زمانية..، وهكذا:

(صديء السماور، لم يبق في الضوء المضبب،
غير طاولة اخيرة، خبت كل نافذة أو طريق،
كما تتراكم الصحون فوق الصحون، ذو النون لم
لم يبرح بجوف النون، أحب عواء الذئاب البعيدة،
أنا جئت سور الصين.. الخ)

وقد كانت استهلالات تبرق اشاراتها الصوتية العالية بعد الزوال الزماني الذي حصل:

(١-صديء السماور،
والتقت بين الزوايا..
خيم العناكب في الدخان الرخو..
كالغبش البليد.
٢-وتخلل المقهى البلى، واحدودب الساقي الوحيد
٣-واستوحشت في ضوئه الخابي المرايا
٤-وخبت بأخيلة لها..
٥-وتبدل المتعهدون!
وطوى الردى صحفاً..
ما انفك الضيوف يتداولون الرأي في انبائها ويخففون شاي الظهيرة في اختصام
٦-صديء السماور، والتقت عاماً فعام
خيم العناكب في الجيوب وفي الحنايا!)... (قصيدة الخواء)..

لقد استطاع الشاعر ان يجعل بوضوح من (الخواء) دالة زمنية زوالية.. وكم كانت القصدية اللغوية الفنية متمكنة هي الأخرى في تكرار حرف (الخاء) في غاية جمالية لتوحيد المناخ الشعري العام..

ان تحليل الشكل البياني يشير إلى نقاط انقلاب صغرى وكبرى، ومثل هذا التحليل يشير شعورياً اولا شعورياً.. إلى ان احساس الشاعر بالخواء قد تدرج هو الآخر بين فجيعة كبرى وصغرى، وقد جاء هذا الاحساس في صحائف الشيخ الساهي بن يقظان بصوت (الاغربة والاترية) في توليفية فنية / جمالية من الخواء واليه.

علي الاشتر

هادي السيد.. رحل ملوحاً بيده وروحه

كان الاخ والصديق (هادي السيد) جزءاً من التاريخ الثقافي العراقي العام، وبالذات تاريخ التمرد على النمطي والتقليدي في الثقافة، ومع ان هادي لم يترك اثراً يشير اليه (لوحة او قصيدة او رواية..) ألا انه كان بامكانه - ان يترك اثاراً فنية وادبية في الفن التشكيلي والشعر والقصة، الوعي الحاد لهادي بالوجود جعل من حدوسه الثقافية، تترى في وعيه على نحو متسارع.

وكان اجتماعياً، وودوداً إلى الحد الذي احب فيه الجميع، وبادله الجميع المحبة، الا ان مشاكساته كانت تلقي بظلالها على علاقاته الاجتماعية، كان يردد في الشوارع وبين الاصدقاء "فقراء يا وطني نموت.. وقطارنا ابداً يفوت.. ونحن من منفى إلى منفى.. ومن باب لباب كما تذوي الزنابق في التراب..".

كان معجباً بكامو وسارتر وبيرس وبمظفر النواب وفوزي كريم وجان دمو وباروخ سبينوزا، وكارل ماركس وسلمان يوسف سلمان وأدونيس وسيجموند فرويد...والسياب وفائق حسن وبيكاسو.. الخ.

كان يسارياً منذ المتوسطة فالاعدادية وحتى كلية العلوم التي رقن قيده فيها بعد ان تحول من التفكير العقلاني إلى التفكير الوجودي الذي انعكس على كل مجريات حياته. ابتعد عن اليسار ليقترب من دوامة القلق الوجودي، فهل كان هادي فيلسوفاً وجودياً مارس الوجودية في الحياة على نحو نهلستي؟ في كلية العلوم مارس هادي الفن التشكيلي فرسم لوحات اعتبرها الفنان رياض الخياط علامة على موهبة كبيرة في الفن التشكيلي.

الانعطافة الحادة التي دمرت القدرة الخلاقة لهادي السيد كشخصية ثقافية، كانت وعيه الوجودي بمأساوية المصير الانساني تلك الفكرة التي نخرت روحه ودمرتها وازاحت حلمه ببناء عالم افضل للانسانية.. ورغم محاولات الاصدقاء تبديد الفكرة التسلطية - القهرية - التي كانت تهيمن على تفكيره الا انها كانت من الثبات بحيث تمكنت منه، فتمظهرت في سلوكه وارائه وتكيفه الاجتماعي. كان يعاني من القهر المرضي فيتذكر آلام الناس فتدمع عيناه فيبكينا، هادي الاريحي الطيب الاجتماعي الاخ الحنون والصديق الوفي، والمثقف الالمعي، يتحول إلى وحيد تتقاذفه شوارع بغداد وفنادقها. كان الجميع يحزن لما تؤول اليه احوال هادي لان كل من يلتقيه يجد فيه انساناً في غاية النبل والعقل المستنير.

يا لشحة الدموع يا ابا (حسن)، اخبرني ابو حيدر انك قد رحلت فتركت (قاسم وجاسم وباسم وسمية وباسمة.. والوالدة). وتركتنا نحن اخوتك واصدقاءك.. وتركت الفقراء الذين احببتهم ومنحتهم بعض روحك.

هكذا اذن يرحل ابناء العراق ضحايا السياسة.. وحيدين يلاقون مصيرهم المحتوم.

ان هادي السيد حرز نجم ثقافي اطفأته السياسة ودمره التفكير، وحياته رواية عن الكائن الانساني الذي يتعذب من اجل الآخرين اولاً، ومن اجل ذاته ثانياً. تركنا (ابو حسن) وهو يلوح بيده، وروحه: وعزائي للعائلة والاصدقاء.. وللنفسي.

و(فقراء يا وطني نموت وقطارنا ابداً يفوت - ونحن من منفى إلى منفى... ومن باب لباب.. نذوي كما تذوي الزنانيق في التراب).

من كتاب المواقف العراقي

عمار كاظم محمد

موقف الطائفية:
أوقفني في الطائفية وقال لي :
قد خلقتها على هيئة مسخ بعين واحدة
فتابعها أعور ولو كان ذا عينين
وقال لي : كل الورى خلقي
وأنا أولى بحسابهم منك
فلا تنصب نفسك مكاني فتكفر
وقال لي : السلام من أسمائي
فمن رآني حربا رددتها عليه .

موقف الأبرياء :
وقال لي : الأبرياء حرمتي
فمن انتهك حرمتي باسمي فقد افترى علي
والويل له من ناري
وقال لي : من أطاعني فقد عصى نفسه
ومن عصاني فقد أطاع هواه
فما أقل العاصين !!!!
وما أكثر الطائعين !!!!

موقف الإنكار
أوقفني في الإنكار
فرأيت بحرا من الدماء
وطيورا خضرا باكية في الملكوت
وميزانا ماثلا في الأفق المحمر
وقال لي : أنا العدل حيث لا عادل غيري
وأنا الشاهد حيث لا رقيب
فمن عبث بميزاني أغرقته في البحر حتى يعتدل الميزان
وقال لي : كل طير في ملكوتي
روح حلت بحماي
فأين يفر عني من أفزعها
وقال لي : ما من ظلامة إلا آخذة بعنق ظالمها
يوم نلزم كل طائره في عنقه
ونورده مورده .

مخاطبة :
يا عبد من رحم عبادي
فقد وسعته رحمتي
ومن اساءهم
فحق لي أن انتقم لهم
فانظر انتقامي وانظر انتقامك
يا عبد ما من جرح إلا وهو فم عندي
فانظر إلى الشاكي والى المشتكى له
يوم (تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون).

يا عبد لا تخف ممن يجاهرك العداء
ولكن احذر من يتباكى عليك
وخنجره وراء ظهره .

أقيمت في سدني وحضرها جمهور غفير من أبناء الجالية:

محاضرة موسعة عن إحياء الأهوار العراقية

سدني خاص بالمدى

ضيف ملتقى حوار، بالتعاون مع المنتدى العراقي الأسترالي، الدكتور حسن الجنابي في محاضرة شيقة بحثت الأمل في عودة الأهوار العراقية إلى سابق عهدها قبل عمليات التجفيف المدمرة التي تعرضت لها في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي.

وقدم المحاضر، الذي يعمل حالياً مستشاراً في وزارة الموارد المالية، والمسؤول المباشر عن مشروع احياء الأهوار العراقية، مستعيناً بالصور والخرائط شرحاً مطولاً وشيقاً لمراحل تجفيف الأهوار التي تمت في عهد لنظام الصدامي، معرجاً على أثر تلك العمليات على انسان المنطقة والنبات والحيوان والبيئة الاقليمية عموماً.

وشرح المحاضر بالتفصيل الخطط المعتمدة آنذاك في التجفيف ومكرها إذ حولت مساحات الأهوار الشاسعة إلى مناطق جرداء غير مأهولة وكانت تضج بالحياة قبلها وبدعاوى مختلفة. وأشار المحاضر إلى ما يعده من أهم الأسباب التي دفعت النظام السابق إلى تجفيف هذه المناطق بالقول أن ذلك تم بسبب حالة الاكتفاء الذاتي الذي يجعل من سكان الأهوار لا يحتاجون للحكومة المركزية بأي شكل من الأشكال، وهو ما اعتبره النظام السابق بمثابة تحد لسلطاته، وقال الجنابي أن الأمر ينطبق بدرجات متوافتة على المناطق الكردية في العراق والتي تعرضت بدورها إلى هجمات السلطة السابقة باستمرار. كما أشار إلى تجاوزات النظام السابق على مناطق الأهوار أيام الحرب العراقية الإيرانية وفتح العديد من الطرق الجديدة، وتحويل مياه نهري دجلة والفرات عن مساريهما المعتادين تاريخياً من أجل خنق مناطق الأهوار وقتلها وتشريد سكانها.

ثم انتقل المحاضر إلى شرح أهم الخطط والخطوات الفعلية التي اتخذت على طريق برنامج اعادة إحياء وتأهيل الأهوار العراقية، والتي بدأت بعد سقوط نظام صدام مباشرة في العام ٢٠٠٣، موضحاً أن عودة تدفق المياه إلى المنطقة قد شكل تحولاً كبيراً إذ عاد مع هذا التدفق للأرض اخضرارها كما عاد سكانها من المناطق المختلفة التي نزحوا إليها في الأعوام السابقة وكذلك ما يتعلق بالطيور وبعض الحيوانات التي تعد مناطق الأهوار العراقية موطنها الحقيقي. وأشار المحاضر إلى استطاعة العراق بعد هذه الجهود الانضمام إلى أكبر المؤسسات العالمية المعنية بالمناطق الرطبة. كما تحدث عن أبرز المشاكل التي تواجه عملهم في إعادة الحياة بشكل كامل لمناطق الأهوار، ومن ذلك ضعف الوعي الشعبي والرسمي بأهمية مناطق الأهوار بالنسبة للعراق بشكل عام ولسكان المناطق الجنوبية بشكل خاص(وقدر المحاضر عدد سكان المناطق المستفيدة فائدة مباشرة من عودة الحياة لمناطق الأهوار في أربع محافظات في الجنوب العراقي بحوالي خمسة ملايين نسمة).

وطرح الدكتور حسن الجنابي في ختام محاضرته الشيقة ما يمكن عده آمال وأحلام الجمهور بعودة الحياة للمناطق العراقية التي شهدت بروز أولى الحضارات ومنها انطلقت رحلة الكتابة إلى العالم، مشيراً بشكل خاص إلى الخطط الموضوعة والرؤى المتعلقة بالمستقبل القريب لمناطق الأهوار العراقية.

ولقد حضر الأمسية التي قدم محاضرها للجمهور الدكتور ضياء البكري أستاذ البيئة في جامعة سدني عدد كبير من المثقفين وأبناء الجالية العراقية في سدني، والذين كانت أسئلة بعضهم تمثل استكمالاً لما بدا محاوراً للمحاضرة والقاء المزيد من الأضواء على أبرز المشاكل التي ظهرت للحيلولة دون عودة مناطق الأهوار لسابق عهدها، وكذلك بروز دور النوادي والجمعيات المعنية بهذا الشأن، والمدعومة من بعض الدول الأجنبية أو تلك التي شكلها مواطنون مخلصون محبون لمناطق الأهوار، وأثر تلك الجمعيات بالارتقاء بواقع المنطقة.

جدير بالذكر أن الأمسية القادمة للملتقى حوار ستكون مخصصة لتجربة الشاعر العراقي فاضل الخياط، والذي يقيم في سدني منذ حوالي عقد كامل، حيث سيقرأ الشاعر آخر نماذجه بالإضافة إلى قراءة شهادات عن تجربته الشعرية.